العرب
الخميس 2021/09/23
السنة 44 العدد 12188

لوحات تستمدّ نورها وعتمتها من عالمي المسرح والفوتوغرافيا

التونسي أحمد الزلفاني يشكّل من القوارير وطنا جديدا لشخصياته المرحة

قوارير منتشية بالأجساد الساكنة فيها

بشخصياته العملاقة التي تهيمن على اللوحة، بل هي أساس اللوحة، يستعرض الفنان التونسي أحمد الزلفاني بين الفينة والأخرى على صفحته الفيسبوكية بعض لوحاته أو منجزه الجديد، القوارير. لونه الفني المخصوص تأتي فيه الشخصيات أو الشخص الواحد أو الوجوه، رجالا ونساء وأطفالا أحيانا، بملامح مُتشابهة، لكنّها غامضة تُراوح بين الضوء والعتمة، بين الوضوح والالتباس، بين الأسود والأبيض، لتُسائل الحاضر التونسي الملتبس: إلى أين نحن ماضون؟

صابر بن عامر
صحافي تونسي

تونس - الشخص عند الفنان التشكيلي والفوتوغرافي والمسرحي التونسي أحمد الزلفاني هو صانع المساحة، بل هو بطل اللوحة أساسا، إن كانت صغيرة أو في شكل جدارية عملاقة.وما تقنيتاه التقليل والتضخيم إلاّ مُتمّمان لتلك البطولة الأحادية لشخصه المُنتقى، وإن تحوّل في أعماله الأخيرة، القوارير التي ما انفك يستعرضها على صفحته الفيسبوكية، إلى جسد مُخاتل وممُتد على الامتداد العمودي للقارورة الحامل الجديد والحمّال الفريد لمعاني ورموز شخوصه السكرانة.

شخصيات ثملة وما هي كذلك تماما، رسمها الفنان على محمل زجاجي لزج أملس يُنذر رمزيا بإمكانية تهاويها إلى القاع، إن لم يتم تثبيتها فعليا بلاصق يحميها من التشتّت شكلا ولونا، بل ومعنى أصلا؛ فالشخصيات المرسومة على السطح الناعم زاوجت بين الذكر والأنثى، بعيدا عن إكراهات الجندر في ثقافتنا العربية الإسلامية، التي تُتيح للرجل ما لا تُبيحه للمرأة من ملذات وشغف العيش، وكأنه يقول لأعداء الحياة بالتصريح قبل التلميح "ارفع كأسك نخب الجمال.. فهو الأبقى".

كيان واحد

تجربة جديدة وفريدة يعلنها "زالف" كما يحلو للمقرّبين منه تسميته، تشي باحتفائه الدائم بالجمال أيا كان حامله، قماشة لوحة، أو قارورة خمر، ولم لا من خلال زجاجة عطر في قادم التجارب، فالفنان الذي كان ولا يزال دراماتورجيا مفكّكا ومروّضا للنص المسرحي، وسابرا لأغواره، ومدرّسا للصورة الفوتوغرافية بالمعاهد الأكاديمية المختصّة، يعي جيّدا أن الجمال حمّال لمعانيه قبل أدواته وخامته، فالجمال ثابت وأدواته متغيّرة.

وفي ذلك تسأل "العرب" أحمد الزلفاني الفوتوغرافي وأحمد الزلفاني الرسّام وأحمد الزلفاني المسرحي أين يكون التواصل وأين يكون التقاطع بين هذه الفنون؟ أم أنها كلها موحّدة؟

فيُجيب باقتضاب "الرسم والفوتوغرافيا والمسرح أعتبرها جميعا أدوات مختلفة أستعملها لإخراج اللوحة، والكلمة هنا تتحمّل البعد المسرحي تحديدا، وعرض ذاك العمل المزمع إنجازه مهما كانت أدواته سواء لوحة أو عدسة كاميرا أو خشبة مسرح ليشارك الآخر فيه ويثريه من عنده، فالأدوات تختلف لكن الكيان واحد والهدف واحد".

فالفوتوغرافي والرسّام لم يفترقا يوما عند الزلفاني، يعيشان ويتهاديان في رحاب بيته/ مرسمه جنبا إلى جنب دون تفضيل فن على آخر، لتأتي أعماله مزجا فطريا لعالمين متناقضين، أو هكذا يصنّفهما النقّاد، لكن "زالف" يجمعهما من خلال عزفه المنفرد على لعبة الظلال المستمدّة من عالم المسرح، تحديدا مسرح خيال الظل، أليس المسرح أب الفنون والجامع لها؟

والزلفاني شارك في الكتابة الدراماتورجية للعديد من المسرحيات التونسية والعالمية على غرار "الطبة"، إخراج الراحلة رجاء بن عمار، و"شاخ مات"، إخراج فتحي بن عزيزة وفتحي العكاري، و"باب العرش" إخراج يحي يحي، كما شارك في إخراج مسرحية "فاجعة في باريس" لدجيجي دلاليو وغيرها الكثير. راكم تجربته الإبداعية في الفنون الثلاثة، مسرحا ورسما وفوتوغرافيا، لأكثر من ثلاثة عقود من الفعل الثقافي، مستندا في كل هذا على ثنائية الضوء والظلمة التي يقول عنها "النور والعتمة، متأتيان أساسا من بصمة الفوتوغرافيا، استحضرهما في الرسم كأداة للتعبير من ضمن الأدوات الأخرى. في الحقيقة لست أنا الذي استحضرهما وإنما يأتيان كحاجة ملحة؛ كـ"تنهيدة" (زفرة) أو ضحكة صادقة تعبيرا عن حال، ربما هو حال تونس الضبابي الذي بتنا نعيش فيه".

وهذا الحال الضبابي يحضر بقوة في معرض الزلفاني الأخير "نحن الآخرون" والذي احتضنه فضاء "كونسبت ستور" برواق دار الفنون في مدينة الثقافة بتونس العاصمة في أبريل الماضي، حيث تحضر شخوصه بوجوهها الطولية وأعينها المنطفئة وأطرافها المرتجفة ورؤوسها الكبيرة الملأى بأسئلة حارقة، والباحثة عن إجابات قد تأتي، والأرجح أنها لن تأتي.

وهو ما يؤكّده "زالف" بنفسه، قائلا "ليست لديّ قصديّة من هذا الامتداد الطولي لشخصياتي في الأفق سوى محاولة إثارة إحساس ما لدى المتلقّي، هو نوع من الإثراء والكشف وتسليط الضوء ورفع ستار على مرحلة تشكيلية سبقتها مراحل، وهي نتاج تواصل للمراحل السابقة ومحطة قبل المراحل اللاحقة.. والرحلة واحدة في النهاية".

شخصيات مرحة تمتد في أفق السموّ والرفعة

عندما يُصبح المتلقي جزءا من اللوحة

غيبوبة واعية

تبدو شخصيات الزلفاني في امتدادها الطولي أشبه بمنحوتات جياكوميتي الممتدة إلى الأعلى، وكأنها تُعانق السحاب لتهرب من أدران الواقع الأرضيّ لتسرد دهشتها الجامحة إلى عالم أكثر ألقا، وأعمق أفقا، معلنة تيهها المحتفي بالسموّ والرفعة والعظمة.

وعن ذلك تسأله "العرب"، "إن كان ألبرتو جياكوميتي هو نحات الامتداد، فهل يمكن أن نقول إن أحمد الزلفاني هو رسام الامتداد أيضا؟"، فيُجيب بمنطق الفنان الساعي للتجريب والتجديد في أتون اللون والشكل دون ادعاء ومُكابرة "أثناء الرحلة تغيب عن ذهني أشياء كثيرة من هذا العالم، فأنسى وأهرب إلى عالم لا جياكوميتي فيه ولا غيره، عالمي صغير أدخله في غيبوبة واعية".

أحمد الزلفاني

شخوصي ممتدة في اللوحة بلا نهاية عكس شخوص جياكوميتي

ويردف "بالنسبة إلى جياكوميتي أرى شخوصه ممتدة، لكنه يضع لها حدا بعد الامتداد، إلاّ أن شخوصي لا تنتهي في اللوحة، قد يضع لها المُشاهد حدا وقد لا يضع".

وفي النهاية، تبدو لوحات الزلفاني وحتى قواريره الأثيرة، إن اتّفق معنا أو لم يتّفق، بامتدادها الطولي للشخوص والمحامل على حد السواء، تعبيرة تشكيلية فريدة عن رغبة مبطنة، أو معلنة، في الهروب من الأرض والتحرّر من كل القيود لمعانقة فضاء مختلف وممتلئ بجمال ونقاء الألوان وتدرّجاتها.

فالأسود والأبيض عنده قرار، بحث من خلاله عن نقطة بيضاء، أساسها الأمل، وقوس قزح ألوانه اختيار، رسّخ عبره هروب شخصياته المرحة إلى عالمه السحريّ/ السريّ الذي لا يُتقنه سوى فنّان متعدّد الاختصاصات والمشارب الفنية اسمه أحمد الزلفاني.

فنان كتب النص المسرحي فأجاده، والتقط اللحظات الهاربة من الزمن والناس بعدسته فوثّقها وأرّخها، ورسم شخوصه الإشكالية والمرحة في آن واحد، فمنحها شفافية تعبيريّة أثارت الفضول والإعجاب أينما ارتحل بها عبر معارضه الخاصة في تونس وفرنسا وإيطاليا وتركيا، وأخرى جماعية في النمسا وألمانيا وبلجيكا واليابان والولايات المتحدة. وهو مع ذلك، كما يُعلن لـ"العرب"، لا يزال متمسّكا بقارب التجريب والتجديد الذي يرسو به مع إشراقة كل يوم جديد في مرفأ مختلف ضمن رحلته الاستكشافية لعوالم الفن المديدة وأسراره العديدة.

فؤاد أبوعساف أيقونة البازلت السوري الجامع بين الميثولوجيا والواقع

السويداء (سوريا) - ثمّة تشكيل حسّي - حركيّ في المنحوتة التي صاغها الفنان السوري الراحل حديثا فؤاد أبوعساف (1966-2021)، كأنه ينحتُ فكرة ليفحص مدى قدرة المتلقّي على التمييز بين الفعل الفلسفي ببعديه الميتافيزيقي والواقعي أيضا، فالنحت عنده لا يمكن أن يتملّص من بثّ الجمال في المكان لاكتشاف قيمه الإنسانية الخالصة.

والفنان الذي غَيبه الموت في التاسع عشر من سبتمبر الجاري عن عمر ناهز الخمسة والخمسين عاما بعد صراع طويل مع المرض، تميّزت مسيرته بإبداع فني ولد من رحم بيئته المحلية السويداء، تغذّيه روح شغوفة تبحث عن مستقرّ لها بين عتمة البازلت وقسوته صاغه الفنان من الخيال والأساطير وموهبة وغنى فكري وثقافي لديه أغنت لغة التشكيل السوري والعالمي بشكل عام، تاركا إرثا غنيا من الأعمال النحتية والفنية بأسلوبية خاصة، جعلت زملاؤه وأصدقاؤه يطلقون عليه لقب أيقونة البازلت السوري.

وعن هذا اللقب الذي أسند للراحل وهو على قيد التشكيل الفعلي قبل أن تخطفه المنية أخيرا، يقول رئيس فرع اتحاد الفنانين التشكيليين بالسويداء الفنان حمد عزام إنه تم إطلاق لقب الأيقونة السورية على الفنان الراحل لتفرّد أسلوبه وغنى أعماله وموضوعاته وتنوّع خاماته، وأهمها البازلت، وهو الذي أضفى بصمة متفرّدة في الفن السوري تاركا أكثر من خمسة آلاف عمل بمقاسات مختلفة منها كبيرة وضخمة أوزانها عشرات الأطنان، فضلا عن مشغله الذي كان بمثابة متحف دائم ومقصد لأصحاب الفكر والأدب والفنانين من داخل سوريا وخارجها للاطلاع على روائع أعماله.

ويقول مدير معهد الفنون التشكيلية والتطبيقية الفنان النحات أسامة عماشة عن عطاء أبوعساف في مجال تعليم الفن عبر تدريسه بمعهد الفنون التطبيقية والتشكيلية وإشرافه على قسم النحت "كان ملما بالمنهاج وتطويره وصاحب معرفة وثقافة عالية، وقد احتضن الراحل المواهب الشابة وساعدها على شقّ طريقها في النحت، حيث حرص على تسديد رسوم العديد من الطلاب لضمان متابعة مشوارهم الفني، فضلا عن نتاجه الفني الذي وصل إلى خمسة آلاف عمل نحتي ودراسات ورقية متباينة الأشكال والأحجام والأوزان".

ويرى النحات أنور رشيد أن منحوتات أبوعساف تميّزت بالوضوح والسهولة، وبأنها ذات سطوح لامعة وخطوط ليّنة ومستقرّة وفيها تعبير قويّ، خاصة في أعمال الأقنعة الطولية، وهو حين اختار موضوع القناع وتوظيفه، عبّر عن مكنوناته الإنسانية والتعبيرات القوية الواضحة مع تبسيط العناصر كي تكون مفهومة للعامة، وهو ما يحسب له.

ويستعيد النحات نشأت الحلبي، جملة كان يردّدها أبوعساف مفادها "الغزارة في الكم تؤدّي إلى تغيّر نوعي"، مبرزا مدى شغف الراحل بالنحت، قائلا "كان يعمل بكثرة وبشكل شبه يومي وامتاز بأسلوبه التعبيري وشخوصه الإنسانية وإضافة العناصر الأخرى التي تحمل رمزية في معانيها وإشاراتها إن كان عبر الأسطورة أو الواقعة التاريخية أو في تمثيل لحادثة أو حكمة"، مبيّنا أن تعمّقه الغزير في المعرفة ساعده على إخراج أعمال نحتية ارتقت إلى العالمية.

ولفت الفنان التشكيلي نضال خويص إلى أن "أعمال الفنان الراحل تراوحت في مجملها بين التماثيل العملاقة والمتوسطة والصغيرة، وهي تكشف عن حالات تعبيرية في منتهى الجمال والرشاقة والروعة لأشخاص ووجوه يغلب عليها طابع القداسة، ولكنها مثقلة بهموم الواقع المعاصر".

وانتشرت أعمال الفنان الراحل في الكثير من دول العالم، وزيّنت العديد من الشوارع والحدائق والأماكن السورية العامة، ومنها نصب الشهيد الطالب الموجود في كلية الحقوق بجامعة دمشق بارتفاع أكثر من ستة أمتار، إضافة إلى أعمال أخرى كمنحوتة العشاء الأخير، وشجرة التفاح، ومذكرات طفل سوري "دون كيشوت"، وسيزيف السوري، وحبة القمح، وليدا والأوزة، وروزا وحجر الصوان، ويا سنديانة، وأنا شجرة، فضلا عن تجسيده المرأة بكل تجلياتها وبكل ما تعنيه من انتماء استنادا إلى مقولة محي الدين ابن عربي "كل ما لا يؤنّث لا يعوّل عليه". كما كانت له العديد من المساهمات في تأسيس عدد من الملتقيات النحتية الدولية بالسويداء في تل جلجلة وموقع سيع.

الراحل أضفى بصمة متفرّدة على الفن السوري، تاركا أكثر من خمسة آلاف منحوتة بمقاسات مختلفة بثّت الجمال أينما وجدت

وتتباين الأشكال والأجسام والأحجام في منحوتات أبوعساف وتتعدّد آفاق التعبير والمنطلقات الفكرية والفلسفية، ولكن تبقى نظرية واحدة تربط بين إبداعاته وأعماله النحتية، وهي لغة السطوح والملامس المبتكرة التي يقوم عليها اتجاهه وينسج منها عالمه الخاص ويستلهم أفكاره محوّلا إياها إلى حوار وسجال مفتوح يسمح للمتلقي بقراءات متعدّدة لأعماله.

والنحات الذي نشأ في بيئة ريفية، وكان حاضرا بين الأرض والتربة والحجارة والصخور عشق الفن منذ الصغر وشغف بالتراث، وهو الذي كان يرى النحت قدره والنحات الذي يسكنه قادر على التحليق في فضاءات الكون، مُعيدا الكثير ممّا أبدعه إلى فكرة الأسطورة بإسقاط معاصر شكّل منه أعمالا لامست ثقافة المنطقة في كامل تجلياتها وترجمت الكلمات والموسيقى الداخلية لمشاعره.

وعن تجربة أبوعساف الفنية يقول الفنان التشكيلي ناصر عبيد "تميّز الراحل بثقافته الواسعة التي انعكست بشكل واضح على منحوتاته ورموزه وإسقاط الميثولوجيا في أعماله، وقدرته على تطويع الحجر الصلد بشكل مدهش والتعامل معه بكل محبة ورقة وصبر".

والفنان التشكيلي الراحل فؤاد أبوعساف من مواليد قرية سليم بمحافظة السويداء سنة 1966، تخرّج من قسم النحت في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق عام 1991، وعمل أستاذا لقسم النحت في معهد الفنون التطبيقية والتشكيلية وفي كلية الفنون الجميلة، وشارك في العديد من المعارض والملتقيات الفنية وأعماله مقتناة داخل سوريا وخارجها وخرّج الكثير من الطلاب والمتدربين من مشغله.

بساطة الطرح لا تلغي عمق المعنى